مؤلفات فقه اللغة بين القدماء والمُحْدثين

يظهر أن فقه اللغة يهتم بالبحث النظري، فهو يعالج –أيضاً- كفرع لعلم اللغة، ظاهرة الترادف والاشتراك والمولد والدخيل، وغير ذلك، ثم يبحث بالتالي عن ظاهرة الوضع اللغوي بصفة عامة، ومن ثم يعتني بالبحث عن الكلمات وتكيفها وتنوعها اللهجي، وعن منشأ اللغة كلها وأسباب الوضع فيها.

في الوقت الحاضر نحن نحافظ على المفهوم العربي القديم؛ إذ تبين من كتب فقه اللغة القديمة أن الأغراض الرئيسة فيها هي:

١- استقراء معاني المفردات وتتبع إطلاقها في شتى السياقات وبيان مسمياتها وحصر استعمالاتها.

٢- بيان الفوارق الدقيقة اللطيفة بين هذه الاستعمالات المختلفة (اللغوية المحضة والبلاغية).

٣- بيان تنوعها اللهجي.

٤- بيان الترتيبات الكثيرة وأهمها الترتيب المحوري الدلالي (بحسب التجانس المعنوي)، والترتيب الأبجدي في المعجمات (وفي فن المعاجم كفرع لعلم اللغة).

أما إحصاء المفردات، وضبط صيغها، ومعانيها الوضعية، وبيان درجة شيوعها، وإعزاؤها إلى قائليها من شتى القبائل، فهذا لا يدخل في فقه اللغة بهذا المعنى (القديم)، بل في علم اللغة الرياضي والجغرافي، وهما فرعان لهذا الفن.

ومن مؤلفات فقه اللغة القديمة والحديثة:

١. الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها، أحمد بن فارس

ابن فارس هو أول من استخدم مصطلح فقه اللغة ويوضح منهجه وبغيته من هذا الكتاب بمقدمة صدَّر بها كتابه فيقول: "إن لعلم العرب أصلاً وفرعاً، أما الفرع فمعرفة الأسماء والصفات كقولنا: رجل، فرس، طويل، قصير، وهذا الذي يبدأ به عند المتعلم. وأما الأصل فالقول على موضوع اللغة وأوّليتها ومنشأها ثم على رسوم العرب في مخاطبتها وما لها من الافتنان تحقيقاً ومجازاً".

ويقول: "والذي جمعناه في مؤلفنا هذا... في أصناف العلماء، وإنما لنا فيه اختصار مبسوط أو بسط مختصر أو شرح مشكل أو جمع متفرق".

الأمر الأول الذي قدم له ابن فارس واتبعه في كتابه هو النظرة الكلية الشاملة لموضوع اللغة واعتباره أصلا يجب أن يدرك ويُفهم؛ لأن هذا هو ما يعوّل عليه في فَهم كتاب الله وكلام رسوله، وهنا تظهر النزعة الدينية التي اتسمت به منهجيتُه وتناوله اللُّغوي، إذ لا ينفك من فكرة دراسته هذه اللغة من كونها لغة دين وخدمتها إنما هي خدمة للقرآن وأهله.

وفي حقيقة الأمر أن النظرة الكلية التي دعا إليها ابن فارس توافق أحدث النظريات العلمية في مجال التعليم وهو الانطلاق من الإدراك الكلي للأشياء ثم معرفة الأجزاء والتفاصيل.

وهو ما اتبعه ابن فارس في كتابه هذا، إذ رأى أن الأصل الذي يجب أن يُعرَف هو إدراك منطق هذه اللغة وأوليتها ونشأتها وفنون الأداء اللغوي فيها معرفة عامة ملمة وهذه هي الرتبة العليا.

فيبدأ الحديث بالقول على لغة العرب أهي توقيف أم اصطلاح، ثم يتحدث عن أفضل اللغات وأوسعها وعن الكلام المعرَّب والدخيل في القرآن، ومشكلات الخط العربي، فيتناول الخطأ في الحديث اليومي وأن هذا مما يجب ألا يُؤْخَذَ به، محاولاً أن يقدم في كتابه ثقافة لغوية متكاملة، إذ يتعرض إلى جوانب لغوية ونحوية وصرفية ودلالية وبلاغية.

وكما **يعرض** للنظم في القرآن وأساليبه الأدائية كالتقديم والتأخير والاعتراض والإيماء والحمل والاتباع وما إلى ذلك، محاولاً أن يمد القارئ بمفاتيح لغوية عامة تمكنه من فهم هذه اللغة ومنطقها وفلسفتها حتى يتسنى له القبض عليها.

٢. الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني

يُعدّ هذا الكتاب بحق موسوعة لغوية متكاملة. فقد تناول ابن جنّي مسائل لغوية متعددة استفاض في شرحها وإيضاحها واستهل كتابه ببيان ماهية اللغة والنحو والإعراب والبناء، واتبع ذلك بتوضيح لأصل اللغة، اصطلاح هي أم إلهام، ومن ثم تناول بالبحث الموضوعات اللغوية التخصصية التي عالجها ابن جني في كتابه.

وإن أهم ما يميز كتاب ابن جني هذا هو جهوده في الكشف عن الدلالة الفنية للأصوات ويقوم هذا البحث بدراسة الدلالة الصوتية للكلمة من حيث النظر في صفات الأصوات، من حيث: الجهر والهمس، والرخاوة والشدة، والانطباق والانفتاح... ومن حيث ما يصاحب الكلمة عند النطق بها من ظواهر صوتية كالنبر والتنغيم، ثم من حيث النظر في مخارجها المختلفة، وبحث العلاقة بين تلك السمات الصوتية للتشكيل الصوتي للكلمة ومناسباتها لسياقها ونسقها الدلالي.

٣. فقه اللغة وسر العربية، أبو منصور الثعالبي

كتاب في فقه اللغة الذي يهتم بظواهر وتعريفاتها وتعليلاتها وأسبابها، وهو عبارة عن جزأين، الجزء الأول فقه اللغة ويبدأ بمقدمة عن فضل العربية وسبب تأليف الكتاب، ثم يبدأ الكتاب تحت كل موضوع الكلمات التي تعبر عنها وكل كلمة معناها الدقيق، ثم الجزء الثاني وهو أصغر من الجزء الأول واسمه سر العربية، يتكلم عن بعض أساليب اللغة بإيجاز يورد التعريف ثم شاهد عليه، ولذلك فإن الكتاب معجم موضوعي مفيد جداً يثري لغة المطلع.

إن مفتاح تحديد هذا المصطلح، هو الحذر اللغوي (فقه) الذي يدل بعامة على العلم بالشيء، وهو مشتق من الشق والفتح، فيكون "فقه اللغة" من هذا المنطق، علم اللغة والغوص إلى دقائقها وغوامضها، وهو ما أكده عنوان الكتاب بقسميه (الأول والثاني): فقه اللغة وسر العربية. هذا الكتاب واحد من كتب قليلة جداً شُغلت بلغة العرب وأساليبهم، ومأثورهم البياني، وخصوصيات البناء والصوغ والاشتقاق، وسائر معهودهم في استخدام اللغة، أداة راقية منظورة لحمل أرقى الرسالات الإنسانية في الدين والدنيا.

٤. تاريخ اللغات السامية، إ. ولفنسون (أبو ذؤيب)

إن لمعرفة لغات وتاريخ الأمم السامية القديمة أهمية كبيرة، إذ إنها تساعد في الكشف على ما تركت هذه الأمم من عجائب الآثار وما كان لها من فضل في تكوين حضارة العام القديمة التي ما تزال تؤثر بتقاليدها وروحها في حضارة العالم الحديث، وتنقسم المراجع التي تبحث في اللغات السامية على قسمين **أولهما** في تاريخ اللغات السامية، وقد ألفت فيه كتب وضعها المستشرقون "نولدكة، وبروكلمان، وبرجشترسر". وهناك مقدمة وضعت في صدر كتب النحو والصرف لجملة من اللغات السامية تشتمل على نظريات شتى تساعد الباحث في تاريخ اللغات السامية كثيراً، وتمكنه من الوصول إلى نتائج ذات أهمية عظيمة. أما القسم **الثاني** فيشتمل على مؤلفات وضعت في الآثار التي كشفت في مواطن الأمم السامية القديمة، وهذا المؤلف "تاريخ اللغات السامية" لمؤلفه أولفنسون يجمع بين تاريخ اللغات السامية وبين جملة نماذج من آثارها.

وكان المؤلف كلما انتهى من البحث والتنقيب في لغة من اللغات السامية، اقتبس أمثله متنوعة من آثارها، لأن الآثار هي المرآة التي تتراءى فيها الصور الصحيحة للغات الأمم وعقلياتها. وقد عني ولفنسون بالبحث في نشأة اللغة العربية ووصل فيه إلى نتائج هي ثمرة جهوده الشخصية، إذ كانت بحوث المستشرقين في نشأة اللغة العربية ناقصة وموجزة بل وغامضة في حين كانت بحوثهم في أغلب اللغات السامية وافية لا سيما في العبرية فلهم أبحاث جليلة لذلك اهتم المؤلف جد الاهتمام بالبحث في اللغة العربية واضعاً لها ثلاثة أبواب مفصلة ألمّ فيها بكل أطوار حياتها منذ الجاهلية إلى الآن.

٦. المعجم المفصل في فقه اللغة، مشتاق عباس معن

يمثل هذا المعجم محاولة لسد ثغرة كبيرة في المكتبة العربية اللسانية العربية وبخاصة حقل المعجميات وبنحو خاص منه خانة (فقه اللغة) ذلك الدرس المهم والحسّاس في الوقت نفسه، إذ لا تكاد تجد دارساً يحدد بالضبط معالم نشأته وولادته وأثيل طرحه في الدرس اللساني العربي، أهو من أصل عربي أم من أصل غربي؟ كما لا تجد من يضع نقاط المفهوم على حروفه، فأغلب الدارسين أخطأوا الهدف في تحديد معالم مفهوم (فقه اللغة) وترسيم حدوده الفاصلة المميزة له من (علم اللغة) وصلة هذين الدرسين بـ(الفيلولوجيا).

لذا فقد عمد مؤلف هذا المعجم إلى تصدير بمقدمة مهمة درس فيها موضوعين حساسين هما:

١-ولادة (فقه اللغة) وجهود الدارسين في ترسيخ دعائمه.

٢-فقه اللغة: المصطلح والمفهوم، وهدف المؤلف من هذا التصدير إغناء ذهن القارئ وثقافته من عموم مفهوم هذا الدرس ولادةً وأصلاً واصطلاحاً ومفهوماً وتطوراً في مرحلة زمنية-دراسية إلى مرحلة زمنية-دراسية أخرى.

بعد هذا التمهيد طرح المؤلف موضوعات كان قد درسها الدارسون ضمن (فقه اللغة) وثبت موضوعات كانوا قد أهملوها، مدخلاً (المعجميات) ضمن هذا المعجم؛ لأنه يمثل استقراءً للألفاظ ودرساً لمعانيها وقراءةً لاختلاف لغات العرب وموازنتها بأخواتها (العربيات) من لغات الناطقين الأوائل، فهي –بذلك- موضوع تاريخي مقارن من موضوعات (فقه اللغة) من دون جدال. أما بقية الانتقاء فيجده القارئ مثبتاً على صفحات المعجم هذا، الذي أخذ بنظر الاهتمام صلة المصطلح بتاريخية اللغة، وجس التطور فيها، أو تحديد نوعية النطق لفظاً ودلالة وتطوراً ناهيك عن أسلوب الموازنة الذي يتم بين نوعين ينتميان إلى جنس واحد، أو بين جنسين ينتميان إلى أصلين مختلفين.

إلى جانب ذلك سعى المؤلف إلى ذكر الروّاد والشخصيات التي أسهمت في توضيح فقه اللغة وتطويره وتقريب مفهومه من الباحثين عرباً وغير عرب. وتجدر الإشارة إلى أن المؤلف قام باستقاء مجمل محتويات هذا المعجم مما سبق تأليفه من كتب ودراسات ومعجمات كتبت في صميم هذا الدرس أو حامت حوله، مدوّناً أسماء تلك المصادر والمراجع في نهاية المعجم روماً لإفادة المطّلع إن أراد التوسع، ولإلحاق المعجم المصطلحي بمعجم مرجعي يخدم الموضوع الرئيس.

٧. مدخل إلى فقه اللغة العربية، أحمد محمد قدور

يمثل الكتاب مدخلاً إلى فقه اللغة العربية، والقصد الرئيس منه هو دراسة خصائص العربية الفصحى دون غيرها من اللغات الأجنبية أو اللهجات العربية القديمة أو الحديثة، ولذلك حرص المؤلف على عدم الوقوع في أي خلط بين الدرس الفقهي العربي، والدرس اللساني المفترض، ولا سيما على صعيد المقولات المعرفية والغايات الشمولية، أما **فصول** الكتاب فتبدأ بفصل فقه اللغة، المصطلح والأسس المصرفية، ثم يأتي الفصل الثاني الذي عُني بدرس أصول العربية ضمن المجموعة العروبية التي تدعى بالسامية، ويتابع الفصل الثالث هذا الدرس، لكنه يخص الفصحى باهتمامه نشأة وتاريخا، ويُعنى الفصلان الرابع والخامس بدراسة أهم الجوانب الصوتية والصرفية في جانب، والجوانب المعجمية والدلالية في جانب آخر.

هذا الكتاب محاولة علمية ضمن مشروع تأصيلي للعلوم اللغوية القديمة والحديثة، تتجلّى بعض ملامحه في الاهتمام بالمصطلح والتحديد المعرفي (الإبستمولوجي)، والاعتناء

بالرصد التاريخي للظواهر والمسائل لبيان الفروق وتحديد الزيادات، والاعتماد على معطيات الزمان والمكان وما بينهما من عوامل، والسعي إلى إعادة النظر في المعطيات القديمة، والتطلّع إلى الزيادة والرفد ونبذ الإلغاء والبتر.

٨. العربية تاريخ وتطور، إبراهيم السامرائي

محطات في رحاب اللغة العربية يقف عندها الدكتور إبراهيم السامرائي بعد صحبته لأعوام طوال للمعجم العربي القديم مصاحبة الصديق، وقد تسنى له بعد هذه الصحبة الطويلة الوقوف على حقيقة مهمة، هي أن من خصائص العربية ما يشير إلى سعتها وشجاعتها، فكان له أن جمع طائفة من وقفاته فيه، في هذا الكتاب يجيل خلالها النظر في الماضي والحاضر ليقدم شيئاً مهماً للدارسين لفائدة هذه اللغة العامرة، جاءت تلك المحطات ضمن بابين وفصول، الباب الأول شمل فصولاً ستة، كان الفصل الأول والثاني بمنزلة مسيرة في رحاب العربية في ظلال المعجم القديم قدم الباحث فيها عرضاً لغوياً تاريخياً لألفاظ كثيرة رتبت على حروف المعجم، فيهما من الفوائد اللغوية النقدية التي ينبغي أن تتوفر في المعجم التاريخي. وقدم في الفصل الثالث عرضاً لمواد البداوة الأولى ثم تحولها إلى مواد حضارية خدمت العلم المتخصص. ودار الفصل الرابع حول أبنية عربية مشتقة صرفت في العربية إلى فوائد دلالية. وقدم المؤلف في الفصل الخامس تحقيقاً لغوياً في الصيغ والاستعمالات بما اشتمل على فوائد لغوية تاريخية إلى جوانب أخرى جّدت في العربية وشاعت. وخصص الفصل السادس لموضوع سطوة الشاعر ولغة الشعر.

أما الباب الثاني فقد حوى فصولاً خمسة والأول منها جاء لمقدمة في دراسة اللهجات، وعرض في الفصل الثاني لمعجم العامي الفصيح مادته ألفاظ عامية متداولة في عصرنا، وقد كانت ألفاظاً فصيحة، مرتبة على حروف المعجم، وتحدث في الفصل الثالث عن العامية في العراق، ونبه في الرابع على قصور لغة الشعر العربي المعاصر، وعدم استطاعة أصحاب هذا الشعر أن يدركوا في شعرهم ما يشيرون إليه من الأعراب عن الفن الحديث المعاصر الذي يكتسب قوته من الفكر الحديث. ثم تحدث في الفصل الخامس عن الجديد في اللغة، وعن المعجم العربي الحديث، وختم كتابه بخاتمة أشار فيها إلى قدرة العربية على استيعاب الجديد معتمدة على طاقتها في استيعابها للمواد القديمة، بدوية وحضرية.